

الفصل الحادي عشر

بقية سنوات برادات الامل

يغطي هذا الفصل بقية سنوات برادات الامل من ١٩٦٧-١٩٧١ ويتضمن ثلاثة أقسام:

- ١- نجاح برادات الأمل وتطورها. ٢- أستقرّ الحال وحان وقت الزواج. ٣- الاختيار بين التجارة والدراسات العليا.

نجاح برادات الأمل وتطورها

استقرت أوضاع برادات الأمل بعد حوالي عام من عودتي من الدراسة في جامعة دمشق وبعد ستة أشهر من افتتاحها. بدأ نشاطي التجاري يتطور بسرعة وأحوالي الاقتصادية تتحسن، فانهمكت في العمل واستغنيت عن فكرة الوظيفة الحكومية.

سراً الأهل والأصدقاء والمعارف والمتعاطفون عامة، عندما تحولت فكرة برادات الأمل إلى واقع ونجحت التجربة.

لم تتعرض برادات الأمل لمضايقات أو أي تدخلات سلبية من قبل السلطة أو من الأجهزة الحكومية، بل تركت التجربة وشأنها وهذا أمر تشكر عليه السلطة والحكومة. فما أنشده هو العيش مع الكرامة والاحترام، وقد تحقق لي بفضل الله احترام الجميع وهذا ما يهمني بصرف النظر عن حبهم لي من عدمه.

كبرت برادات الأمل من حيث حجم المكان وتضاعفت المساحة المتاحة للعرض وأضيفت إليها مخازن يناهز حجمها حجم مساحة العرض، ملاصقة لها في الخلف مباشرة منها، يملكها عبد الله بن تركي أيضاً. كما زاد عدد المترددين على برادات الأمل بحكم شهرتها ونمى عدد زبائنها بشكل مضطرد بحكم التعاطف وبسبب تقديم البرادات خدمة تحتاجها المنطقة وساكنوها والعاملون في محيطها.

تصاعدت مبيعات التجزئة في برادات الأمل وكانت تتضاعف من فترة إلى أخرى وتنوعت البضاعة المعروضة في ضوء تلبية احتياجات الزبائن حتى أصبحت البرادات سوپر ماركت متوسط الحجم بمفهوم اليوم. أضيفت تدريجياً إلى معروضات المحل الصحف وطوابع البريد والقرطاسية المدرسية وبطاقات المعايدة والتهنئة وكل ما سئل عنه المترددون وتوقعوا توفره في برادات الأمل.

استمرت البرادات في الاعتماد على مصادرها المحلية السابقة وأخرى جديدة في تزويد المحل بالبضاعة وأضيف إليها استيراد بضائع من الخارج لتلبية احتياجات البرادات والبيع بالجملة. وقد لُقنت أول تجربة في الاستيراد إدارة البرادات درسا وحملتها خسائر معتبرة. وذلك عندما بدأ استيراد مواد غذائية من البحرين عن طريق الصديق علي صالح الصالح الذي أصبح يدير تجارة والده في المواد الغذائية.

وكان من بين تلك البضائع معلبات بلغارية مشهورة في البحرين ولكنها لم تعرف بعد في قطر، عبارة عن معلبات خضار لذيدة جاهزة للتقديم بمجرد التسخين أو بدونه، تتضمن زيت الزيتون وتشبه طبخة المصقعة من حيث المذاق. وقد بدأنا استيراد مئات الكراتين من البحرين ثم استوردنا الآلاف من بلغاريا مباشرة. كان السوق يطلبها حتى زادت كميات الاستيراد من قبلنا ومن قبل تجار آخرين وحل موسم الصيف وارتفعت حرارة الجو، فانتفخت المعلبات المعدنية بسبب وجود الزيت وتعرض المعلبات للحرارة. وكان علينا التخلص من تلك المعلبات لوجود شبهة عدم صلاحيتها للاستهلاك الآدمي.

تعلمنا في بردات الأمل الدرس وقمنا بتبريد المخازن، وزدنا من نشاط الاستيراد المباشر. استوردنا معلبات الفطر (المشروم) من الصين وكانت برادات الامل اول من أستوردها من الصين إلى قطر. وكذلك معلبات لحم دجاج جاهز للأكل، وكان عليه طلب خاص من قبل الجيش والشرطة لتقديمه ضمن وجبات جاهزة التحضير في وقت الطوارئ.

وجدير بالذكر أن محمد بن عبد الله العطية قد أمر مشكورا، قسم مشتريات الجيش والشرطة بأن يقصدنا مندوبوه لشراء بعض احتياجاتهم من المواد الغذائية و كذلك متطلبات قصر الضيافة الذي يقومون بالإشراف عليه. كما وجه عبد الرحمن بن خالد الخاطر مسؤولي مشتريات ديوان ولي العهد ونائب الحاكم بأن يشتروا من برادات الامل بعض احتياجاتهم. و كان أيضا الزميل السابق لي في شركة نفط قطر إدريس السليطي المسئول عن كائتين وتموين شركة نفط قطر في مسعيد يشتري منا بعض احتياجات الشركة من المواد الغذائية.

وفي مرة من المرات طلب منا ادريس توريد عدس هندي بكميات كبيرة، ولم يكن لدينا ولا يوجد في السوق عدس هندي سوى عند تاجر هندي في شارع الكهرباء يحتكره. وأذكر هنا أنني قد احتلت على المحتكر من أجل الحصول على الكميات المطلوبة بسعر مناسب. قدمت نفسي له باعتباري مسئول المشتريات في احدى شركات النفط وأحتاج إلى كميات كبيرة من العدس الهندي و طلبت منحي سعرا مناسباً يشجع الشركة على الاعتماد عليه في المستقبل لمزيد من مشترياتها. ويبدو ان المحتكر الهندي قد بلع الطعم ولم يشك بأنني تاجر مثله، فباعني العدس بسعر مناسب طمعا في المستقبل وزاد على ذلك أن أعطاني شخصا عمولة تشجيعية باعتباري موظفا في الشركة. وأهداني كارتوناً مملوءاً بالمعلبات والحلويات للبيت والأولاد الذين لم أنجبهم بعد.

ولا يفوتني أن أذكر أنني قد تعرفت على مصدر هندي اسمه رستمجي من تجار المواد الغذائية في بومباي، استوردت منه معلبات منها معلبات البامية التي كان عليها طلب كبير في قطر. قرر رستمجي ان يزور قطر ويتعرف على السوق القطري الذي بدأت تروج فيه منتجاته من المعلبات، كي يقدر احتياجات السوق ويقوم بتلبية طلبه.

عندما وصل التاجر الى الدوحة فوجئت بأن ملامحه ليست هندية بل كان أشقر فسألته، وقال لي انه بارسي، أي فارسي وفهمت منه أنه مهاجر يعيش في الهند. فسألته متى كانت هجرته الى الهند وما السبب فقال لي ان أسرته هناك منذ حوالي ١٣٠٠ سنة. وذلك أنه عندما دخل الاسلام إلى فارس، هاجر أصحاب الديانة الفارسية القديمة - المجوس- إلى الهند واستقروا في بومباي.

فوجئت بما قاله ضيفي رستمجي ولم أتصور كيف ينتسب شخصاً ما الى بلد هاجرت منه عائلته منذ اكثر من ألف سنة، ويظل محتفظا باسم عائلته وديانته وثقافتها، بل اندهشت من الحساسية العنصرية والتعصب للذين منعا اسلافه وصولا إليه، من الاندماج في البلد الذي هاجروا إليه حتى أنهم لم يكتسبوا ملامح سكانه من خلال الاختلاط والانصهار والتزاوج فضلا عن التأثير بثقافة أهله ودياناتهم.

وعندما زرت الهند بعد ذلك بحوالي عشر سنوات ذهبت إلى بومباي وزرت معبد المجوس حيث يوقدون النار التي يعبدونها بخشب الصندل ذو الرائحة الزكية والثلثم الغالي. وكذلك اتخذوا لهم مقراً خاصاً على قمة صخرة كبيرة على ساحل البحر يضعون فوقها موتاهم لتأكل لحومهم النسور والغربان ومن ثم يرمون عظامهم إلى البحر أسفل الصخرة لتتحلل.

والنشاط الآخر الذي زاولته برادات الأمل هو الدخول في مناقصة حكومية لصالح دائرة الهندسة. كانت المناقصة لتوريد فطور لعمال دائرة الهندسة، وكان الفطور ما زال كما قرره الانجليز قبل خمس عشرة سنة، خبزا وتمرا. درسنا المناقصة واتفقنا مبدئيا مع نفس الخباز الايراني الذي يزود المتعهد الحالي على توفير الخبز لنا بنفس المواصفات والحجم والوزن.

رست المناقصة على البرادات وبدأ تزويد دائر الهندسة بالخبز والتمر كل صباح. وبعد فترة أحتج مشرف العمال على مواصفات الخبز، فقلنا له هذا هو الخبز الذي كان يورده المتعهد السابق بنفس المواصفات ومن نفس المخابز، وهذا ما أكده العمال انفسهم والمهندس المشرف.

وقد تبين ان المشرف كان مستفيدا بصورة شخصية من التعامل مع المتعهد السابق وفوجئ بترسية المناقصة على برادات الأمل. تلك كانت أول مواجهة لي مع الفساد الصغير الذي لم أواجهه من قبل في قطر، وكنت أعتقد أن الفساد لم يطل مشرف العمال ولم ينل من خبز العمال وتمرهم. وهذا يذكرني بالطرفة التي تقول "ان أحد مشتري السمك أخذ يفحص ذيل السمكة ليتأكد من انها ليست فاسدة. فقال له بائع السمك ماذا تفعل، فرد عليه الزبون اتأكد من سلامة السمكة وعدم فسادها، فقال له البائع السمكة تفسد من رأسها فرد عليه الزبون، الرأس فاسد من زمان ولكنني أريد أن اتأكد أن كان الفساد قد وصل للذيل".

بعد أن انطلقت برادات الأمل وتطورت نشاطاتها وبلغت مرحلة الاستقرار مع النمو والتحسين المعتاد، عدت ربما في عام ١٩٦٨ للتفكير في نشاط الوساطة التجارية (القومسيون) الذي كنت أنوي مزاولته قبل افتتاح برادات الأمل، كما سبقت الإشارة. اتخذت من مكنتي في برادات الأمل مقرا واشتريت آلة كتابة باللغة الانجليزية وطبعت أوراقا رسمية باسمي، بعد أن عدلت السجل التجاري رقم ٣٩٥ ليصبح باسمي و يكون غرضه تجارة عامة وتصبح برادات الأمل فرعا منه.

استأنفت مراسلاتي السابقة مع عدد من فروع المؤسسة العامة للصناعات الخفيفة في الصين، واتفقت معهم على استيراد الأدوات الصحية والسيراميك وكذلك سائر مواد البناء المصنعة لديهم وهي كثيرة. أرسلوا إلي دليل السلع (كتالوج) ومواصفاتها وأسعارها للمستورد، المتضمنة ٥% عمولة تدفع لي عند تسديد قيمة الاعتماد المستندي، وفوضوني بإصدار عقد البيع الذي يكون ساري المفعول بمجرد فتح الاعتماد لدى أحد البنوك في قطر.

ذهبت الى السوق مبدئياً بالتاجر السمح الذي أشعر بتقديره لوالدي، ابراهيم عبد الغني تاجر الادوات الصحية وعوازل الرطوبة وعدد كبير من مواد البناء الثانوية في سوق واقف، بالقرب من دكان الذياب حيث يجلس محمد ذياب أحد معتقلي حركة ١٩٦٣.

عرضت عليه كتلوجات البضاعة التي في حوزتي فوجد الاسعار مناسبة والبضاعة ملائمة، فوافق دون تردد على طلب كمية صغيرة من مختلف الانواع التي عرضتها عليه. جهزت العقد وأحضرتة في اليوم التالي ليقوم ابراهيم عبد الغني بناء عليه بفتح الاعتماد المستندي المطلوب لدى البنك البريطاني.

واصلت مروري على تجار مواد البناء والأدوات الصحية، فزرت حسن السعدي في عمارته، وقد وافق بدوره على شراء صفائح الخشب المضغوط وعوازل الرطوبة بكميات تجريبية. وكذلك زرت متجر علي بن خميس الكواري الذي يديره شقيقه مبارك، كما زرت عمارة مبارك بن صالح الخليفي وكان يشرف عليها ابنه صالح، وعمارة احمد بن صالح الخليفي وعمارة نابينا وغيرهم من تجار مواد البناء والأدوات الصحية ومنجرة احمد عباس. منهم من وافق على الشراء ومنهم من اختار أن ينتظر حتى تصل البضاعة التي طلبتها لبقية التجار.

وبعد حوالي ثلاثة أشهر تقريبا وصلت بضاعة ابراهيم عبد الغني وبضاعة حسن السعدي. وبذلك أختبرت في السوق جدية وساطتي، وانتشرت السمعة الطيبة لدى تجار مواد البناء والأدوات الصحية والمتعاملين في المواد المكملة والمساعدة في صناعة البناء.

وبعد فترة بدأت ارسل مصدري أخشاب الصنوبر في النمسا ورومانيا، وراسلت أيضا مصدرين في سنغافورة من أجل استيراد الخشب الاحمر ومواد مشابهة لمنتجات الصناعات الخفيفة في الصين. وفي أواخر حقبة برادات الامل تعاونت مع احمد بن محمد آل احمد الثاني وشريكه خالد بن سعد السعد في استيراد حديد التسليح من بلجيكا، بعد أن قاما بزيارتي وقدموا اقتراح التعاون، ربما لما نمت الي سمعهما عن خبرتي في استيراد مواد البناء وحاجتهما لمن يتقن في تعامله ويرغبان في التعاون معه للاستثمار في مواد البناء، في وقت بدأت فيه أسعار مواد البناء تتصاعد بسبب ارتفاع اسعار النفط العالمية.

أما النشاط الاقتصادي الثالث والأخير الذي زاولته، فكان اقامة مصنع للبوطة أسميته "بوطة الامل". وقد أقتراح المشروع عليّ احد جيران برادات الامل الذي يسكن البناية نفسها واسمه يوسف الشولي على ما أتذكر، وكان يعمل في شركة شل. أقتراح علي أن اقيم مصنعاً للبوطة وقال أن ابن أخته متخصص في هذه الصناعة في بيروت ويمكنني ان أتى به مديرا فنيا للمصنع المتواضع. استحسنت الفكرة حيث أن قطر لم يكن يوجد فيها سوى مصنع واحد يملكه محمد بن جبر الثاني اسمه على ما أظن " أيسكريم ويليامز ".

ذهبت إلى بيروت والتقيت فؤاد ابن شقيقة يوسف الشولي الذي زرت بصحبته مصنعاً صغيراً للبوطة و شرح لي سهولة الصناعة وأطلعني على المعدات والقوالب اللازمة، كما عرفني على المطابع التي تصنع علب الكرتون و غلاف مصاصات الايسكريم وتكتب الاسم التجاري عليه. وبعد تقدير التكلفة اللازمة لخطي إنتاج، أحدهما لإنتاج علب البوطة التي يكون أساسها الحليب والثاني لإنتاج الايسكريم الذي يتكون من ماء وسكر واللوان زاهية للأطفال. وكان فؤاد يردد على مسمعي "فلوس الماء ماء"، أي ان أنتاج بضاعة تتكون في معظمها من الماء سهل وربحها وفير.

لم أتردد في التفاوض على شراء المعدات والمواد اللازمة وطباعة الأغلفة، وعدت إلى قطر لأبدأ خطوات التأسيس وأحصل على سجل تجاري جديد باسم "بوطة الأمل"، ومن ثم أفتح الاعتماد البنكي اللازم. استخرجت تأشيرة لفؤاد المدير الفني لبوطة الأمل واستأجرت المقر الذي كان على بعد حوالي نصف كيلو متر من برادات الأمل على شارع رأس أبو عبود في بناية ورثها أحد أبناء ابراهيم المسلماني.

وبعد أن علم علي بن خميس بن زامل بأنني قد استأجرت مكانا في تلك البناية الجديدة سعى الى تأجير محلات تجارية في الطابق الارضي بنفس الشروط، وعندما بدأ يتفاوض على الايجار أخذ المؤجر يردد أنه لن يتنازل عن الايجار الذي حدده ويكرر كلمة " أنا يتيم " فقال له علي بن خميس من باب المزاح، ما رأيك أن أعطيك أبوي وأمي وأخذ البناية لي "، وكان أبوه وأمه قد أختارهما الله الى جواره وواسع رحمته وغفرانه، منذ مدة.

بعد أشهر وربما في صيف ١٩٦٩ تم افتتاح بوظة الامل وكانت مشروعا ناجحا بدأ ينتج و يوزع البوظة في سائر أنحاء الدوحة وضواحيها وخارجها الى الخور شمالا والوكرة جنوبا. وكان الموزع في السيارة الخاصة التي اشتريتها لتخزين الايسكريم وتوزيعه هو زين الدين محي الدين، الذي كان جارا لبرادات الامل وشريكا في مغسلة تقع في بناية الهتمي المقابلة لبرادات الامل. وذلك بعد أن جذبه نشاط البرادات والايسكريم وشعبيتهما ليترك المغسلة ويقرر الانضمام الى فريق بوظة الامل.

وجدير بالذكر أن زين الدين أصبح وزوجته رقية التي لم ترزق بالذرية، يعدان من أفراد عائلتنا لسنوات عديدة حتى تقاعد زين الدين وعاد الى الهند مخلفا وراءه جماعة من أقربائه وأهل قريته في الهند أتى بهم إلى قطر ليكونوا اسرته الكبيرة.

أستقر الحال وحان وقت الزواج

طوال الفترة من ١٩٦٦-١٩٧١ كانت برادات الامل مصدر رزقي ومقري الدائم، ومنطلقى للمرحلة التالية بما وفرته لي التجربة من استقلال مالي وخبرة في الحياة، وبما أكسبنتي من احترام الناس.

أصبحت برادات الامل ملتقى أصدقائي من أعضاء نادي الطليعة ومن تعرفت عليهم قبل ذلك وبعده. اتسعت دائرة معارفي ونمت صداقاتي مع الكثيرين من قطر وزوارها وبقية الاخوة العرب المقيمين فيها.

كان مكتبي في آخر البرادات مجلسا مفتوحا لأصدقائي ومعارفي بحضوري أو بدونه، تدور فيه المناقشات ويتم تبادل الاخبار والهموم. زارني بعض القريبين من السلطة في إطار الاهتمامات العامة كما تعاطف معي بعض المسؤولين، ورحبت بهم وقدرت تلك الزيارات وذلك التعاطف من قبلهم.

استقبلنا في قطر عدد من الناشطين الذين اضطروا للخروج من البحرين في عام ١٩٦٨، وكذلك مر علينا عدد من الشباب الذين ما زالوا في ذلك الوقت يعملون من أجل استمرار النضال في عمان الداخل.

وكانت صلتى بمختلف أصحاب التوجه الوطني في قطر جيدة، نتواصل مع بعضنا خاصة في أوقات الازمات. وفي تلك الفترة ذكر لي محمد مرسي مدير مدرستنا الابتدائية في عام ١٩٥٧، بأنه لاحظ ظاهرة تواصل أجيال الشباب في قطر، وأن صلة جيلنا لم تنقطع مع الجيل الوطني الأكبر منه سنا، خاصة في وقت الازمات.

قمت بزيارات متعددة للبحرين وأبو ظبي في سياقات مختلفة، وبشكل أقل زرت بقية الإمارات. كما زرت المملكة العربية لحضور زواج راشد بن محمد الخاطر في مدينة الجبيل والالتقاء بوالد علي الغنام. وذهبت للرياض مع جابر بن ناصر لزيارة سعود وحمود -أصدقائي أيام الدراسة في سوريا. قضينا أيام جميلة في ضيافتهما وكانت ليالي الصيف رائعة في المساء عندما نذهب للسهر على تلال الرمل في طريق خريص. أما في النهار فكنا نلزم المسكن الذي نقيم فيه والمبني من الطين لشدة حرارة الجو وجفافه. عندها ترحمنا على رطوبة ساحل الخليج بالرغم من تذرنا عندما نرشد عرقا من تلك الرطوبة.

زرت لبنان والتقيت بطلاب قطر ومنهم علي حسن الخلف وعبد الله صالح المانع ومحمد جاسم النصف و الرجل الشهيم محمد بن ناصر الخاطر الذي كان يصر على أن أنام في غرفته بينما ينام هو في الصالة، عندما كنت أبات عندهم في بعض الاحيان. كما تعرفت على رغييد الصلح ونقولا الفرزلي ومعن بشور. وحضرت لقاءات وتعرفت على شخصيات عربية منهم شفيق الكمالي الشاعر والأكاديمي والسياسي العراقي الدارس لشعر النبط.

كثرت زياراتي للعراق بعد أن التحق شقيقي يوسف بكلية الاداب قسم علم الاجتماع بجامعة بغداد، التي اصبحت وجهة لبعض الزملاء والأصدقاء يتلقون العلم في كلياتها. وزادت زياراتي بعد أن رجع علي الغنام من فرنسا ليقدم في العراق والتحقت به أسرته التي طال فراقه لها أكثر من خمسة عشر عاماً.

كانت أكبر الهموم وأثقلها في تلك الفترة نكسة ١٩٦٧ التي لم تكن تخطر على بال جيلنا ولم يحسب لها حساباً. وبزغت بارقة الأمل عندما بدأت حرب الاستنزاف التي صاحبها توحيد الصف العربي في مؤتمر القمة العربية في الخرطوم ولأهاته الثلاث.

كما كان صعود الثورة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير وبرز دور الفصائل الفلسطينية وأكبرهم "حركة فتح"، قد بدأ فعلاً يحول الشعور بالنكسة إلى مجرد معركة مؤلمة خسرها العرب. وذلك بعد أن انتصر الجيش الاردني والفدائيون في معركة الكرامة بتاريخ ٢١/٣/١٩٦٨، وكبدا اسرائيل ٧٠ قتيلاً من جنودها.

بدأت المعركة بعد أن توغلت اسرائيل في شرق نهر الاردن إلى قرية الكرامة، بهدف اضعاف الفدائيين ومهاجمة معسكرات اللاجئين واحتلال أراض اردنية (١). وقد استمرت الثورة الفلسطينية في تصاعد حتى أحداث أيلول " الأسود " عام ١٩٧٠ عندما أجبرت فصائل المقاومة على الخروج من الاردن.

وقد شكل تردد الجيش العراقي الموجود في الأردن وتوانيه، عن حماية فصائل المقاومة الفلسطينية صدمة لي ولكل من وضع أمله في المقاومة الفلسطينية ودور العراق في مسانبتها. وفي ذلك الوقت لم أقدر أن حماية فصائل الثورة الفلسطينية في الأردن كان فوق قدرة الجيش العراقي، بل شعرنا أن الثورة في العراق كانت معنية باعتبارات الدولة أكثر من عنايتها بأهداف الثورة.

الهم المحلي والإقليمي الكبير بالنسبة لمنطقة الخليج العربي في ذلك الوقت، كان خطر الهجرة الايرانية الذي اصبح خطر أمبراطورية إيران نفسها على المنطقة بعد إعلان الانسحاب البريطاني من شرق السويس والخشية من قيام إيران بملء الفراغ الناجم عن الانسحاب البريطاني في عام ١٩٧١. وقد تطرقت لمحاولات الرد الرسمي التي لم تكفل بالنجاح في القسم الثالث من الفصل العاشر.

أما ردة الفعل الشعبي فقد كان تزايد القلق واستمرار التوعية بمخاطر الهجرة الايرانية التي اصبحت ذات أبعاد خطيرة أخرى تتمثل في احتمال احتلال إيران لمناطق على الساحل العربي للخليج، فضلاً عن احتمال تزايد نفوذها لدى الحكام وهيمنتها على بعض الإمارات، خوفاً منها وطمعاً في حمايتها مستفيدة في ذلك من معطيات الهجرة الايرانية خاصة في دبي وقطر.

وفي قطر كان طيف نادي الطليعة الذي سبق الحديث عنه مع بقية الوطنيين، بالرغم من ضعف الحركة الوطنية بعد عام ١٩٦٣، قلقين يفكرون في مواجهة ما يمكن مواجهته في حالة الخطر، بالتنسيق فيما بين الوطنيين في الداخل ومع القوى الوطنية في بقية الخليج والاستفادة من العمق العربي بالفدر الذي تسمح به الظروف.

في أواخر عام ١٩٦٩ التفت إلى نفسي وقررت الزواج وتكوين أسرة، ولم أبحث كثيرا ولا بعيدا فقد اخترت من بنات الجيران، وجيراننا في أم غويلينه بمثابة الأهل ومن بينهم عبد الله بن سعد المناعي الذي ربطتني به صداقة ومودة. تشاورت مع والدي الذي رحب بالفكرة و سره اختياري وحثني على عدم التأخير.

بعد فترة من التمهيد التقليدي حظيت بالقبول، وتقدمت برفقة والدي لخطبة لطيفة بنت عبد الله بن سعد المناعي من والدها الكريم، الذي رحب بنا ووعد خيرا ولم تطل فترة الانتظار.

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٦٩ عقد القران عند الشيخ حسن بن جابر بحضور ابنه الصديق عبد اللطيف الذي كان يحثني على الزواج بعد أن سبقتني إليه. وفي ٥ فبراير ١٩٧٠ كان موعد الزواج وهو نفس اليوم والشهر الذي تزوج فيه خالد الربان قبلي، ويصادف يوم عيد اول وحدة عربية في العصر الحديث، وحدة مصر وسوريا. لم أختار أنا التاريخ ولا أختاره خالد وإنما حسن الصدف جمعت تاريخ زواج كل منا وقرنته بذكرى قيام الوحدة العربية التي نؤمن بها.

أقيمت لزواجنا ثلاث حفلات الأولى أقيمتها قبل موعد الزواج بليلتين في نادي العمال بشركة شل في راس أبو عبود. وكانت حفلة فنية غير تقليدية دعي إليها الأصدقاء والمعارف، ساعدني في تنظيمها الفنان عبد الرحمن المناعي صديقي وابن عمة زوجتي، وأحيائها الموسيقار عبد العزيز ناصر وفرقة الاضواء. والثانية حفلة النساء والثالثة ليلة العرس حيث أقيمت عرضة شارك فيها الأهل والأقارب والجيران وتجلى البعض منهم بالرزيف وإطلاق الرصاص ابتهاجا بالمناسبة، اذكر منهم صالح بن محمد بن حمزة الذي عبر رحمه الله عن كثير من الود والفرح.

سكنت مع والدي في بيتنا في ام غويلينه بعد ان تم تجهيز قسم خاص لسكني، فالحكومة التي منحت بقية خريجي الجامعات من القطريين أراضي وقروضا لبناء مسكن، لم يكن في وارد قرارها ان تعاملني بالمثل. وقيل لي أنه بإمكانني أن أقدم طلبا لمسكن شعبي، فقدمت ولكن دوري لم يحن إلا بعد حوالي ثلاثة عشر عاماً في ١٩٨٢ بعد ان بنيت لنفسني بيتا هو بيتنا الحالي، ولم أعد في حاجة للمسكن الشعبي الذي لم أقدم لاستلامه ولا أعرف كيف تم التصرف به.

وفي الاجازة الصيفية ذهبنا لقضاء شهر العسل في رحلة استغرقت حوالي شهرين. بدأنا من لبنان حيث قمت بحجز تذاكر السفر والفنادق في كل من رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا.

وأثناء الحجوزات قمنا بزيارة دمشق لعدة أيام . واجهتنا هناك صعوبة رفض فندق أمية ان يعطينا غرفة مشتركة بسبب عدم وجود وثيقة الزواج معنا وليس مكتوبا في جوازاتنا بأننا متزوجان وهذا هو النظام في سوريا. حاولت ان أشرح لمدير الفندق فلم يقبل ولم يستجب، فاضطرت أن أقول له أنني سوف أتصل بمحمود الايوبي رئيس الوزراء آنذاك في سوريا ليشهد لي، فهو يعرفني حق المعرفة. والأستاذ محمود الايوبي كان مدرسا في مدرسة الدوحة الثانوية. عندها أخذ المدير يراجع نفسه و أصدر موافقته. وقد قمت فعلا بزيارة محمود الايوبي للسلام عليه.

قضينا بضعة ايام في دمشق زرنا فيها الاماكن التي أعرفها وزدنا عليها زيارة الأماكن التاريخية والمتاحف ومناطق في ضواحي دمشق. عدنا إلى بيروت ومنها بدأنا رحلتنا إلى أوروبا الشرقية، لنقضي

أجازتنا وفي نفس الوقت أطلع على نظم الحكم في المعسكر الشرقي التي تسمى نفسها اشتراكية وديمقراطية.

كانت محطتنا الاولى ميناء كونستنتا Constanta على البحر الاسود، انتقلنا منه إلى منتجع مامايا Mamaia القريب الذي يتكون من عشرات الفنادق ومئات المطاعم والمقاهي التي يرتادها السياح الأوروبيون، ولا يستخدم الرومانيون أنفسهم تلك التسهيلات السياحية. فهذا المنتجع أقيم من أجل عدم اختلاط السياح بالسكان خوفاً من التأثير على توقعاتهم المعيشية.

كانت محطتنا الثانية منتجع فارنا Varna على ساحل البحر الاسود في بلغاريا. ولكننا وصلنا إلى محطة القطار متأخرين عن موعد القطار. عدلنا الحجز إلى اليوم الثاني وعدنا إلى الفندق. ولكن الفندق ليس لديه غرف ولا توجد غرفة نقضي فيها ليلة واحدة في كل فنادق مامايا التي تعد بالمئات. وفي آخر المساء عطفت علينا موظفة الاستقبال فعرضت علينا أن نصحبها إلى شقتها.

ذهبنا إلى شقتها الصغيرة حيث تسكن في غرفة مع زوجها وفي الغرفة الأخرى من الشقة يسكن زوجان آخران. تركا لنا مشكورين الغرفة وناما في الصالة. قضينا بقية المساء في الحديث معهم نتفاهم بما تيسر من كلمات وبالإشارة لعلنا نتعرف على أحوال المعيشة والرضى الشعبي العام. لاحظنا اهتمامهما بملابسنا فأهديناها ما يمكن ان نستغني عنه في رحلتنا.

علمت من الرجل، زوج مضيفتنا والذي يعمل مهندسا زراعيًا كيف ان طموحه لا يرتقي إلى شراء ما يرغب ويحب من الملابس مثل بنطلون الجينز المحرم في رومانيا آن ذاك. أما تغيير عمله أو السكن في شقة مستقلة مع عائلته أو تغيير مكان أقامته، فهي كلها أمور يتحكم فيها جهاز التخطيط المركزي. عليه أن يعيش كما تخطط له الدولة دون وجود مجال للمبادرات أو فرصة لتغيير الحال. عندها أدركت كم يفقد الانسان إنسانيته عندما يفقد إرادته، وتصبح الحياة أمامه دون أمل في التغيير ودون حافز للعطاء والإنتاج سوى الاوامر التي لا يستطيع رفضها.

في الصباح ذهبنا للمحطة مبكرين وركبنا القطار الذي غادر بنا إلى فارنا على البحر الاسود حوالي الحادية عشر صباحا ووصلنا فارنا حوالي الثامنة في المساء. مررنا بحقول من الزراعة المحمية وبمزارع واسعة حديثة كبيرة تمتد كل منها لعدة أميال ويتخصص كل منها في زراعة محصول واحد من الفواكه. كلها ملك للدولة والقطاع العام، وهي اقرب الى تنظيم الصناعة الحديثة من المزارع التي نعرفها.

عندما وصلنا فارنا وذهبنا إلى الفندق الذي كان حجزنا فيه قبل يوم الوصول. لم نجد غرفة، وبعد محاولات من قبل الفندق ومن خلاله مع فنادق اخري في فارنا والساحل الذهبي الذي هو شبيه بممايا لم نجدوا لنا غرفة، فقد ألغى حجزنا بسبب تأخرنا عن الوصول في موعد الحجز، والفنادق كلها محجوزة بالكامل في موسم الصيف.

أدركنا بأننا نواجه مشكلة ليس لها حل في فرنا، ومن الأفضل أن نغادر إلى صوفيا على أول قطار. علمنا من الفندق أن هناك قطاراً يغادر باتجاه صوفيا في منتصف الليل.

ذهبنا إلى المحطة وركبنا القطار الذي استغرق حوالي ١٢ ساعة للوصول إلى صوفيا. قضينا ليلة متعبة مواصلين لأطول رحلة بالقطار قمنا بها تجاوزت ٢٤ ساعة من مامايا إلى صوفيا، وتعلمنا أهمية الالتزام بالوقت، فالقطار لا ينتظر.

وصلنا صوفيا في منتصف النهار وذهبنا إلى فندق كان قصرا للملك حيث تم الحجز لنا. طلبنا وجبة تعوضنا عما فاتنا من وجبات في انتظار اللحظة التي نخلد فيها للنوم.

قضينا عدة أيام في صوفيا سعدنا فيها وزرنا ضواحيها وزرنا العجر وشهدنا رقصهم وسمعنا أغانيهم. لاحظت أن النظام السياسي قريب من رومانيا ولكن الحياة أقل كآبة لان البلغار يشعرون بالفخر للعيش في دولة قومية لها تاريخ وعليهم واجب بنائها، الامر الذي يخفف من ضيق العيش ويجعلهم أكثر استعدادا لقبول القبضة الحديدية للدولة. كما لاحظنا أثناء سفرنا أن الزراعة في بلغاريا أقل حداثة ومازال الفلاحون يمتلكون الارض ويزرعون حقولا صغيرة. وقد لاحظنا وجودا ملحوظا للعرب في بلغاريا وكذلك الكثير من الاثار الاسلامية من الحقبة العثمانية.

غادرنا صوفيا إلى بلغراد عاصمة يوغسلافيا بالقطار وكان القطار أفضل من سابقه. وعندما وصلنا حاولنا أن نستقل سيارة أجرة إلا أن حمالا اسمه عثمان كان أول من استقبلنا وكأنه كان ينتظرنا في المحطة. حمل الحفائب بعد ان ربطها بحبل على ظهره وانطلق بنا إلى فندق موسكوفيا. حاولنا إيقافه عند باب المحطة لنستدعي سيارة أجرة ولكنه اصر على السير على قدميه وهو يوميء بيده بأن الفندق قريب جدا ولا حاجة للتاكسي. صدقنا عثمان ومشينا وراءه في طرقات صاعدة نازلة متعبة لمدة لا تقل عن ثلاث ساعة، كلما سألناه أشار بيده أن الفندق قريب. وعندما وصلنا الفندق ادركنا أنه ضحك علينا للحصول على أجرة التاكسي لنفسه.

قضينا عدة أيام في بلغراد، زرنا المدينة وضواحيها ووجدنا البلد أكثر انفتاحا وفيها قدر من الملكية الخاصة في مجال المطاعم والسكن والتجارة الصغيرة والزراعة، وأن نظام الحوافز موجود ومعمول به وأحوال الناس تختلف عن رومانيا وعن بلغاريا بسبب وجود اقتصاد السوق جزئيا، بينهم مساح الاحذية وبينهم التاجر وصاحب العمل الحر مستور الحال. لاحظنا وجود مسلمين ومسجد تقام فيه الصلاة. وبشكل عام تشعُر أن المجتمع أكثر حرية من رومانيا وبلغاريا وفيه حيز للمبادرات الشخصية، ولكن الفقر والفوارق أيضا أشد وضوحا.

محطتنا الأخيرة في أوروبا الشرقية كانت بوخارست حيث سكنا فندقا في منتصف المدينة كان أيضا قصرا تم تحويله الى فندق. وبالصدفة التقيت بالصديق علي بن حسين المفتاح في بهو الفندق حيث جاء من بغداد مكان دراسته لقضاء إجازة مع بعض زملائه. وفي بوخارست استقدت من وجودي وقمت باتصالات مع مصدري الاخشاب الرومانية. وبذلك لم تخل الرحلة من قضاء مصلحة تجارية اغتنمتها في طريقي.

بعد عدة أيام عدنا بالطائرة إلى لبنان. قضينا أياما في بيروت وأياماً أخرى في برمانا في فندق بريتانيا حيث حجز لنا مشكورا، الصديق نقولا الفرزلي ورتب لنا حضور حفلة غنائية كبيرة في مكان مفتوح ختمنا بها رحلتنا الجميلة الممتعة المعلمة، التي تعرفنا فيها على أحوال غيرنا وتعلمنا من صعوباتها أيضا.

الاختيار بين التجارة والدراسات العليا

بعد النجاح التجاري النسبي الذي تحقق لي، واستقرار أوضاعي بالزواج وتكوين أسرة خاصة بي، بدأت أفكر في المستقبل والتخطيط له. هل أستمر في مزاوله العمل التجاري الذي نجحت فيه وأصبحت آفاقه واعدته، أم أعود إلى حلمي السابق في الدراسات العليا بعد أن أصبحت قادراً على تحمل نفقاتها والتفرغ لها.

ومن بين الاسباب التي دعنتني إلى إعادة التفكير في خياراتي، ما لاحظته على سلوكي من تغمص شخصية التاجر بعد أن اتخذت التجارة مهنة لي. فمن طبعي ان أتصرف بجدية وأن أعطي ما أقوم به حقه من الاهتمام وما يتطلبه من حضور وتركيز.

ومن السلوكيات التي لاحظتها على نفسي في آخر هذه الفترة هو أنني أصبحت أولي أكبر اهتمامي لمن لي مصلحة تجارية معه، مقارنة باهتمامي أثناء وجودي في العمل بأصدقائي ومعارفي الذين يأتون كالعادة إلى البرادات باعتبارها مجلساً لهم ومكاناً للقاء.

فلم يعد لدي وقت لمجالستهم في المكتب كما كنت أحرص في السابق. و إن أصر بعضهم على مشاركتي مجلسهم، فأنتني أصبحت أجد نفسي مضطراً إلى ذلك من باب المجاملة، بينما أفضل ان أقضي الوقت المتاح لي في إدارة عملي التجاري. أما إذا ربطتني بالزائر مصلحة تجارية فأنتني بطبيعة الحال أجد الوقت لمجالسته ومجالسته وأكون مسروراً بذلك لما فيه من مصلحة مشتركة.

أدركت أنني إذا اتخذت التجارة مهنة بدلاً من أن تكون مرحلة ضرورة، فإن سلوكي سوف يصبح سلوك التاجر الناجح وعلاقتي سوف تنحصر ضمن دائرة من لي معه مصلحة مباشرة، وسوف يتراجع اهتمامي بالشأن العام والتعبير عنه. وقد يؤدي ذلك إلى ما أنا غير راغب فيه ولا قادراً على ما يتطلبه من تنازلات.

أما الخيار الآخر أمامي فهو التفرغ للدراسات العليا ونيل الدكتوراه ومواصلة الاهتمام بالشأن العام أثناء الدراسة وبعدها. وذلك الخيار الاستراتيجي أصبحت آنذاك مقتدراً عليه مادياً وبالنسبة لأهمية تواجدي مع الوالد والأهل في قطر والذي كان ضرورياً خلال الفترة السابقة، فسوف ينوب عني و يقوم مقامي فيه شقيقي يوسف عندما ينتهي من دراسته الجامعية في بغداد في اول صيف عام ١٩٧١. أما زوجتي فسوف تسافر معي وتلتحق بالدراسة فهي سوف تنتهي الدراسة الثانوية في العام الدراسي ١٩٧٠/١٩٧١.

أخذت وقتي في التفكير والتشاور مع الأهل والأصدقاء، وكان البعض يستغرب تفكيري وميلي للتفرغ للدراسة وترك مصدر الرزق الذي فتحه الله عليّ بعد عناء. وبعض من تحدثت معه في هذا الشأن يرى ما اراه من ضرورة العودة للدراسة، وإن كانوا لا يرون ضرورة التخلص بالبيع من النشاطات التجارية التي استسناها، وهي البرادات ومصنع الايسكريم ونشاط الوساطة في تجارة

الاستيراد. تركت مسألة اتخاذ القرار معلقة فما زال في الوقت متسع. واصلت نشاطاتي وتنمية تجارتي وواصلت التفكير في مآلها، مؤجلا القرار الاخير الى حين.

في نهاية عام ١٩٧٠ تعرفت إلى سحيم بن حمد الثاني الذي اصبح وزيرا للخارجية عندما تولى شقيقه الشيخ خليفة بن حمد الحكم في قطر في شهر شباط / فبراير ١٩٧٢. كان تعارفنا على ما أذكر عن طريق سالمين وخليفة بن خالد السويدي. أخبرني خليفة أن الشيخ سحيم يود زيارتي في مكنتي للتعرف. رحبت بالزيارة واستقبلت سحيم كصديق وجد في تجربتي ما يستحق التقدير.

وبعد فترة فاتحني سحيم بن حمد بنيتة على زيارة مصر والسودان حيث يفكر ان يكون معه وفد أهلي مكون من سالمين بن خالد السويدي أحد المعتقلين في حركة ١٩٦٣ ومني، إضافة إلى اثنين من لاعبي كرة القدم من الاخوة السودانيين هما كامل وسعد. وذلك لتعريف كل من حكومة مصر في عهد السادات وحكومة الثورة في السودان بأحوال الخليج والمخاطر التي تواجه المنطقة.

استحسننت الفكرة ورغبت فيها بعد أن أكد لي سالمين انه سوف يُترك لنا المجال لشرح المخاطر التي تتعرض لها المنطقة للمسؤولين الذين سنلتقي بهم في البلدين. وعندما أفكر اليوم معللا السبب من تلك الرحلة ووجودي فيها، فإنني اظن ان تلك الزيارة كانت تأهيلا للشيخ سحيم من قبل شقيقه الشيخ خليفة ليكون وزير خارجيته عندما يتولى الحكم، وتمهيدا لمد الجسور مع الشباب ومع بعض الدول العربية.

سافرنا إلى مصر في مطلع عام ١٩٧١ وكان في استقبالنا في المطار مدير مكتب الرئيس السادات فوزي عبد الحافظ واتجهنا إلى فندق شيرتون في الحيزة دون أن نمر على الجوازات. وعندما وصلنا الفندق، علمت أنه قد حصلت مشكلة بخصوص دخولي إلى مصر لاني مبعد منها، ولم تحل المشكلة إلا بتدخل رسمي على مستوى عال، وبذلك رفع المنع عن دخول مصر، وتحققت اولى فوائد تلك الرحلة.

قضينا أياماً رغبة في فندق شيرتون الفخم، زار فيها سحيم الرئيس السادات والتقىنا سالمين وانا بمدير مكتبه فوزي عبد الحافظ وتحدثنا معه حول مخاطر الهجرة الايرانية وما يمكن أن تواجهه المنطقة من خطر إيراني عند انسحاب بريطانيا من الخليج في أواخر عام ١٩٧١.

ولم يفتني ان أدعو الوفد إلى مسرح الريحاني حيث حضرنا مسرحية فيه. سرّ البعض بالسهرة الثقافية وجاملني آخرون. ولعل ما لفت نظري هو خفوت تآلق القاهرة الذي عهدته والحالة الحزينة التي تعيشها بعد ان اكتظت بالمهاجرين اليها من مدن القناة، وتأثرت بما تتحمله مصر من تبعات النكسة وحرب الاستنزاف.

غادرنا القاهرة إلى الخرطوم حيث كان الاستقبال رسمياً ورياضياً بحكم وجود الزملاء السودانيين. أقمنا في فيلا للضيافة ودعينا إلى حفلات مسائية فنية في مزارع خاصة، غنى فيها مطربون سودانيون مشهورون أحدهم عبد الكريم كابلي على ما أذكر وكان مبدعا بحق. كذلك أتاحت لنا رحلة جميلة ممتعة على ظهر مركب في النيل زرنا ملتقى النهرين عند جزيرة توتي بين أم درمان والخرطوم،

حيث يلتقي النيل الازرق بالنيل الابيض ويتجهان شمالا، وأدركنا مدى غنى السودان بالموارد المائية والزراعة على ضفاف الانهار.

التقى الشيخ سحيم بالرئيس نميري والتقينا مع عدد من الوزراء منهم محمد أبراهيم وزير الدفاع وفاروق أبو عيسى وزير الخارجية الذي وجدت لديه تفهما لمخاطر الهجرة الايرانية واهتماما بأوضاع منطقة الخليج العربي وخشية من المخاطر المحيطة بها. وقد كان فاروق الوحيد من بين الذين التقينا بهم خلال رحلتنا الذي أظهر معرفة وإطلاعا بأحوال الخليج وإدراكا للمخاطر الايرانية التي شبهها بخطر استيطان فلسطين وضياعها.

عدنا الى الدوحة عن طريق الكويت حيث أقمنا في فندق شيرتون الكويت الجديد والفخم أيضا. زارنا في الكويت ناصر بن حمد الشقيق الأصغر للشيخ سحيم المقرب منه، مهنئا بنجاح المهمة التي لم أعرف إلا بعضاً من جوانبها. استمرت علاقتي الطيبة مع سحيم وتكررت زيارته لبرادات الامل والانضمام الى زملاء في مكنتي في أحاديثهم. وبعد قيام "الحركة التصحيحية" في عام ١٩٧٢ عين سحيم بن حمد وزيرا للخارجية والتقيت به في لندن عند زيارته لها، كما زرته في مكنته في وزارة الخارجية عندما عدت إلى قطر في سياق الدراسات العليا.

أزفت ساعة الاختيار بين التجارة والدراسات العليا وزال التردد لصالح الدراسة العليا ومغادرة "الاتجاه الاجباري" إلى المسار الاكثر قربا من نفسي والأجدر بتحقيق ذاتي وطموحاتي وهو الدراسة العليا ونيل شهادة الدكتوراه، حيث يستمر اهتمامي بالشأن العام عن طريق البحث والدراسة والنشاط بقدر الإمكان.

توصلت إلى اتفاق لبيع برادات الامل بكل ما لها بعد تسديد ما عليها وقد كان لاسم الشهرة "برادات الامل" قيمة تكفي لتغطية معظم مصاريف الدراسة في بريطانيا إن لم تكن كلها. كما توصلت لتأجير اسم "ايسكريم الامل" إلى محمد رضوان صهر صاحب ايسكريم وليمز ألمناقس، الذي أشتري المعدات وأضاف إليها، وشغل المصنع لحسابه بضع سنوات.

وأخير بعث برادات الامل على متقاعدين كريمين من شركة نفط قطر قررا الاستثمار في التجارة هما مبارك بن خميس الخليفة وخليفه السدير، حيث تم تقييم البضاعة بالتكلفة وقدرت قيمة بقية المحتويات وأضيفت قيمة أسم الشهرة إلى ثمن البيع. وبذلك وضعت نهاية للسير في "الطريق الاجباري" لأعود الى حيث أحب أن أكون، شاكرا لبرادات الامل ما اتاحته لي من تجربة ما كان لي أن أنجح فيها لولا تعاطف الكثيرين من أهل قطر وتضامنهم معي.

الملاحظات

<http://www.palqa.com/index.php?module=wars&id=5> - ١